تجربتي مع الرقابة

نهاد سيريس

قبل أن نتحدَّث عمّا نتعرّض له ككتّاب نتيجةً للرقابة المفروضة علينا من قِبل المؤسَّسات الإعلاميّة والثقافيّة الحكوميّة، أودّ أن أشير إلى أنّنا تربَّيْنا منذ الصغر على تقبُّل الرقابة كشيءٍ قدريٍّ لا مناصَ منه.

فلقد وُلدتُ وترعرعتُ في أسرة من الطبقة الوسطى. ورغم أنّ والدي كان أكثرَ تحرُّرًا من غيره من الآباء في أوساطنا، فإنّه كان يراعي تقاليدَ طبقته، ويراعي البيئةَ التي نعيش فيها. كانت الأوامرُ تَصْدر إلينا بعدم التحدّث إلى أيّ كان عن هذا الأمر أو ذاك، ممّا يَحْدث داخل المنزل أو العائلة. والأمور التي كان علينا كأطفال، ومن ثَمَّ كشباب يافعين، أن نراعي سريَّتَها هي المشاكلُ الأُسرويّة التي قد تَحْدث في كلّ منزل، وكذلك المصاعبُ الماليّة التي كان والدي يمرّ بها في بعض الأحيان. واليوم أَعتقد أنّ نظام الضبط الأُسرويّ هذا خَلَقَ شيئًا قريبًا من مفهوم الرقابة؛ ذلك لأنّ على كل فردٍ منا أن يَحْفظ لسانَه، وألاّ يَزلّ في أمورٍ تُضْعف من هيبة ربّ الأسرة ومن هيبة العائلة كلِّها إنْ هي وصلتْ إلى أسماع الآخرين.

أَذْكر مرةً أنّ أحد الشبّان من الأقرباء انتحر. كان شابّاً وسيمًا وناجحًا نسبيّاً في عمله، إلا أنّه انتحر شنقًا بحبلٍ علَّقه في حلقةٍ متدلِّيةٍ من السقف. عرفنا، نحن الصغارَ، السببَ الذي جعله يفعل ذلك، من همسات الكبار الذين كانوا يتداولون الأمرَ بتجهُّم: لقد شَنَقَ نفسَه بعد أن فشل في العشق. كان قد أحبَّ إحدى الجارات، إلّا أنّ الفتاة لم تشاطرْه الحُبّ، فرفضتْه حين تقدَّم لخطبتها. بعقلي الذي لم يكن قد عرف تمامًا كلَّ قوانين الرقابة الداخليّة قمتُ بنقل الخبر إلى شخصٍ ما، وقام هذا بدوره بنقل الخبر إلى عشرات المتسائلين عن سبب الموت. عرف أبي أنّني أنا الذي كشف السرَّ، فقام بمعاقبتي بشدّة.

حين أتمعّن الآن في الحادثة أرى أنّني تحدثتُ في أمريْن خطيريْن لم يكن مناسبًا أن يُعرَفا من قِبل المجتمع، وهما: أنّ الشاب قد نَحَرَ نفسَه، وأنّه فعل ذلك عشقًا. ولكنّ ما يفيد في هذا المقام هو أنّ المجتمع الأسرويّ عندنا يربّي أفرادَه على عدم قول الحقيقة في ظروف معيّنة، أيْ أنّه يُشْبه إلى حدٍّ بعيدٍ ما تفعله السلطاتُ مع الكتّاب اليوم.

إنّها التهمةُ نفسُها في الحاليْن: هتكُ السرِّ، وإضعافُ الهيبة، وتهديدُ أركان المجتمع. وفي هذه الأثناء، تتمُّ عمليةُ تعويد الناس منذ الطفولة على تقبُّل الرقابة كشيء عاديّ، بل ومطلوبٍ أيضًا. وهذا الأمر يساعد السلطاتِ على إتمام عمليّة فرض الرقابة فيما بعد، حين يَكْبر الطفلُ وربما يصبح كاتبًا، فيشعر أنّ عليه ألاّ يقول كلَّ الحقيقة أو أنّ عليه أن يكذب.

في مرحلة لاحقة تقوم أيضًا المؤسسةُ التعليميّةُ بالدور نفسه، وذلك من خلال دَفْع الطلبة إلى تدبيج النصوص الإنشائيّة التي تتغنّى بالحياة والطبيعة وبأمجاد الأمة؛ ويحظَّر عليهم أن يَذْكروا شيئًا ذا علاقةٍ بالمشاكل

الأساسيّة للوطن، من بطالة وجوع وآلام، أو التطرُّقُ إلى الأفكار السياسيّة التي تتباعد مع سياسة النظام. وأذْكر أنّني كتبتُ يومًا نصّاً مدرسيّاً أَصِفُ فيه رجلاً يعمل اثنتيْ عشرة ساعةً يوميّاً لكي يُطْعم أُسرتَه ويؤمِّنَ لها حاجيّاتِها الأساسيّةَ بسبب غلاء المعيشة. فنبّهني مدرِّسُ اللغة العربيّة آنذاك إلى أنّ عليَّ أن أُضيف جملةً لأبيّنَ بها أنّ هذا قد جرى في زمن بعيد، وبالتحديد أيّام «الإقطاعيّة والرأسماليّة،» لا في أيّام تطبيق الاشتراكيّة!

◆ ◆ ◆

يأتي دورُ مؤسّسات الدولة في الرقابة حين ينتقل الفردُ إلى العمل. وكان أولَ اصطدامي بمؤسّسة الرقابة حين أردتُ نشرَ أول قصة لي في إحدى الصحف المحليّة الحكوميّة. فقد رفض محرِّرُ الصفحة التي وجَّهتُ إليها قصتي نشرَها، وادّعى أنّها غير ملائمة لأنّها جريئةٌ ومفعمةٌ بالأفكار «الوجوديّة.» ولما كنتُ قد مررتُ في طفولتي بعمليّة تدريبٍ على قبول الرقابة من دون اعتراض، فقد أعدتُ كتابةَ القصة بعد أن حَذفتُ تلك الأفكارَ «الهدّامة» واستعضتُ عنها بعناصر رمزيّة تفي بالحاجة ولكنها لن تكون مفهومةً إلا لي وحدي. فتمّ نشرُها.

في الفترة التي تلت قمتُ بإصدار أربع روايات، اثنتان منهما عن فترة الحرب العالميّة الأولى، والثالثة عن تسلُّل البداوة إلى المدينة ومنعِها إيّاها من بناء مجتمعها المدينيّ الحديث. أما الرابعة فقد كانت شبهَ إيديولوجيّة، تشبِّه حالَ العرب بحال الهنود الحمر: فنحن سُمْر، وهم حُمْر، والعدوّ أبيضُ ناصع. رحّب الرقيبُ بالروايات الأربع، وخاصة بالأخيرة لأنّها تهاجم أميركا وإسرائيلَ صراحةً، ووافق عليها جميعًا مع بعض التعديلات الطفيفة هنا وهناك لكي لا يَفْهم البعضُ ـ عن سوءِ نيّةٍ كما قال ـ أنني ربّما أنتقد بعض الظواهر في الحياة السياسيّة السوريّة.

نشرتُها في لبنان، لكنّها مُنعتْ من التوزيع في سوريا

◆ ◆ ◆

بعد ذلك قمتُ بكتابة أكثر من سيناريو لمسلسلات تلفزيونيّة، أيْ أنّني اقتربتُ من الجهاز العزيز على قلب السلطة، وهو جهاز تَفْرض عليه رقابةً صارمةً بسبب قوة تأثيره في الجماهير. وعَبْرَ التلفزيون تعبِّئ السلطةُ الناسَ وتَفْرض سياستَها عليهم، كما هو الحالُ مع الصحف اليوميّة، ولا تريد من أحد أن ينافسها في سيطرتها على مفاهيم هذا القطاع.

بقي أولُ نصّ تلفزيونيّ لي أكثرَ من سنتين في أدراج الرقابة. وكانت دهشتي عظيمةً حين تمّ إيقافُه؛ فقد كنتُ مدرَّبًا جيّدًا على الرضوخ للرقابة. وكان نصّي يَسْرد، فيما يَسْرد، حكايةَ أزمة السويس، ثم ما يُعرف بـ «الأزمة السوريّة،» وصولاً إلى الوحدة السوريّة ـ المصريّة. وكنتُ أحسب أنّ الرقابة لن تجدَ فيه شيئًا يتعارض مع الرؤى السياسيّة للنظام السياسيّ التقدُّميّ. هذه الدهشة تعاظمتْ حين عَرفتُ من الرقابة ذاتها أنّها تَعترض على تسمية الأحزاب السياسيّة السوريّة في فترة الخمسينيّات بأسمائها الحقيقية. إذن، كان عليّ أن أتجاهلَ وجودَ الحزب الشيوعيّ وجماعة الإخوان المسلمين والأحزابِ الليبراليّة الأخرى، لكي يمرّ نصّي. بعد أخذٍ وردٍّ داما أشهرًا وجدتُ الحلّ. أطلقتُ على الشيوعيّين اسمَ «الحُمْر،» وعلى البعثيين صفةَ «القوميّين،» وعلى حزب الشعب اسمَ جماعة فلان، وعلى الحزب الوطنيّ اسمَ جماعة علاّن. وهكذا أُطلق سراحُ نصّي، وتمّ تصويرُه، فكان «خان الحرير.»

كان عليّ في الجزء الثاني من المسلسل أن أتناول فترةَ الوحدة ومن ثمّ انهيارها، وتبيانَ أسباب هذا الانهيار. أَبقيتُ على التسميات ذاتها، إذ لا يُلْدغ المرءُ من الجحْر مرتين. ورحتُ أبيِّن أنّ انهيار الوحدة كان بسبب التصرُّفات غير الديمقراطيّة لحكومة الوحدة، وإطلاقِ أيدي الأجهزة، وحلِّ الأحزاب، والإصلاح الزراعيّ، والتأميم، وتسريح الضبّاط المسيَّسين. تمت الموافقةُ على النص بسرعة قياسيّة؛ فقد كان لجزئه الأول سمعةٌ طيّبة. ولمّا كان تصويرُه قد انتهى قبل شهر رمضان بأيّام، فقد بدأ عرضُه فورًا. وكانت الرقابة تشاهد حلقاته يومًا بيوم قبيْل عرضها بساعات. لكنّ الرقيب اكتشفَ فجأةً أنّ النصّ ربما يروِّج الأفكارَ الشيوعيّةَ، فقام بحذف بعض المشاهد. ثم اكتشفَ أنّه يروِّج أفكارًا ضد مصادرة أراضي المزارعين، فقام بحذف مشاهد

أخرى. ثم اكتشفَ أنّه ضدّ التأميم. وبعد ذلك اكتشفَ أنّني ضدّ أجهزة المخابرات. وربما اكتشف أنّني لا ألوم مؤامرات الاستعمار والصهيونيّة كسبب وحيد لانهيار الوحدة، فحذف مشاهدَ أخرى. فتحوّل هذا المسلسلُ السياسيّ الاجتماعيّ إلى شبه برنامج منوّعات تَرْقص على أنغامه «حجياتُ» الغجر.

بعد تولّي الرئيس بشّار مقاليدَ الرئاسة أعادوا عرضَ المسلسل من دون حذفِ ما سبق تفصيلُه، بل اكتفوا بحذف مشهدٍ يذكّر بحادثة تذويب جثة المناضل الشيوعيّ فرج الله الحلو بالأسيد، ومشهدٍ آخر يتأسّف على عظمة مؤسسة «أصفر ونجّار» الزراعيّة العصريّة التي كانوا قد صادروها وقطّعوها شقفًا ليتم توزيعُها على الفلاحين.

◆ ◆ ◆

سأَذْكر حادثةً بسيطةً لأؤكّد تشابُهَ الرقابة الأسرويّة التي فُرضتْ عليّ وأنا طفل، بالرقابة التي تُفْرض الآن من قِبل المؤسسة الإعلاميّة الحكوميّة علينا نحن الكتّابَ. فمن أجل تصوير مسلسلي «الثريّا،» كان علينا أن نجد قريةً متخلِّفةً لأنّ أحداث المسلسل تدور في أواخر الحقبة العثمانيّة. وجدنا قريةً مناسبةً تَبْعد عن مدينتنا العصريّة خمسةً وثلاثين كيلومترًا، لا ماء فيها ولا كهرباء ولا صرف صحيّ ولا أيّ مظهر من مظاهر الحضارة. أهلُها لا يملكون البرّادات ولا الغسّالات ولا أجهزةَ التلفزيون. أثناء الأحاديث الحميمة التي كانت تجري بيننا وبين أهل القرية البسطاء طَلَبوا منّا أن نوصل شكاويهم إلى المسؤولين من أجل أن يُدخلوهم التاريخَ ويقوموا بإيصال أسلاك الكهرباء إلى قريتهم.

جاءت كاميرا التلفزيون الحكوميّ لتصوير ريبورتاج عن عمليّة تصوير المسلسل، وكان عليّ أن أتحدّث بدوري. فوجدتُ الفرصةَ سانحةً لأقول إنّنا «لحسن الحظّ» وَجَدْنا القريةَ المناسبةَ (من حيث التخلّف) لتصوير مسلسل عن زمن «العصمانلي.» وذكرتُ أنّنا نرجو المسؤولين ـ نيابةً عن القرويّين ـ الاهتمامَ بهذا الأمر. وعندما عُرض الريبورتاج تمّ حذفُ ما قلتُه عن القرية وحالةِ التخلّف الذي تعيش فيه. فحسْب رأي الرقابة، ليس من المناسب أن يَكْتب التاريخُ أنّ هناك قريةً خارج التاريخ في سورية الحديثة لا تبعد سوى خمسة وثلاثين كيلومترًا عن مركز مدينة حلب. إذن، يجب ألاّ تقال الحقيقةُ خوفًا من أن تُهدَرَ السمعةُ الحسنةُ التي يصنعها الإعلامُ ليلاً نهارًا.

◆ ◆ ◆

بعد المشكلة الكبيرة التي خَلَقها الجزءُ الثاني من «خان الحرير» من حيث التجرؤ على المفاهيم السائدة حول الوحدة السوريّة ـ المصريّة وأسبابِ انهيارها، أصبحتْ نصوصي تُقرأ بحذرٍ شديدٍ من قِبل الرقابة. وهكذا رفضوا لي نصّاً بعنوان «حزن» لأنه يناقش قضيّة فساد العلاقات في المدينة الكبيرة، وأيضًا لأنّني بنيتُ القريةَ كما يحلو لي لا كما يرونها هم. ثم رُفِض النصّ للمرة الثالثة، فركنتُه أخيرًا في أحد أدراج مكتبي.

ولذلك عندما كتبتُ رواية **حالة شغف** وجدتُ أنّه من الأفضل ألاّ أسعى إلى الموافقة على طباعتها في سورية، فاتّجهتُ بها فورًا إلى إحدى دُور النشر اللبنانية. إلا أنّ ذلك لم يَشْفع للرواية: فقد مَنَعَ الرقيبُ توزيعَها هنا، فتحولتْ إلى سلعة يتم تداولُها في السوق السوداء.

حلب

نهاد سيريس

روائيّ سوريّ. صدرتْ له أربع روايات: **السرطان**، و**رياح الشمال**، و**الكوميديا الفلاّحية**، و**حالة شغف** (مُنعتْ في سوريا) كتب للدراما التلفزيونيّة بعضَ السيناريوهات اللافتة، مثل «خان الحرير» و«الثريّا.»